ولدي.. ولدي!

بقلم: سندرام

تمدد «هاري» كعادته تحت الأريكة في إحدى عربات القطار الذاهب إلى «بومبي».. لقد اعتاد أن يتخذ هذا الوضع، الذي يضطر إليه المتهربون من دفع أجرة السفر، خشية أن تمتد إليهم الأيدي الغلاظ التي لا ترحم، وتلقي بهم إلى خارج القطار.. والذين دأبوا على هذا العمل قد اكتسبوا خبرة وحذراً أصبحوا معهما في مأمن من التعرض لمثل ذلك الإجراء العنيف، وأمنوا في سربهم فلم يفكروا إلا في اللحظة التي هم فيما.. وقد أصبح «هاري» هذا على شاكلتهم، لا تعوزه الخبرة ولا يعجزه الزوغان في الوقت المناسب، ولم يعد في قلبه مكان للخوف أو الاضطراب، شأنه شأن كل خبير في مهنته، ولو كانت مهنة التلصص والاحتيال!. لقد زادت متاعبه في الشهور الماضية حتى أثقلت كاهله، وتضاعفت حتى جعلته كمن احتقن بالأم فغاب عن وعيه... وعن شعوره!.

كان القطار ينهب الأرض نهباً وهو يمر بالبلاد واحدة بعد الأخرى.. وأشار أحد الجالسين في الديوان إلى مصانع النسيج الكبرىفي «ليندلو».. وذكر اسمها مقروناً بالاعجاب... وبالذكريات، وماكاد «هاري» يلتقط هذا الاسم حتى اهتز بدنه كمن مسته كهربا أو لدغته حية!.. وسرت فيه قشعريرة شملتكل جارحة من جوارحه.. وشرد فكره بعيداً.. وكانت هذه هي المرة الأولى – منذ شهور عديدة – التي يطلق فيها «هاري» لتفكيره العنان!.

عادت به الذاكرة إلى الفترة التيكان يعمل فيها في تلك المصانع.. لقد طرد منها ولكنه حتى الآن لا يجد سبباً يبرر هذا الطرد!.. كان ذلك

منذ أكثر من عام.. وكان صاحبنا حينئذ عاملاً في مصنع النسيج، أعزب يعيش وحيداً في غرفته المتواضعة القريبة من المصنع، وعندما اشتعلت نار الحرب،كثرت الأيدي العاملة، واقتضت السياسة الجديدة أن يخرج العذاب ليخلو المكان للمتزوجين.. وخرج هاري فيمن خرجوا، وبحث عن الزوجة الصالحة وتزوج.. ثم عاد بعد بضعة شهور باحثاً عن العمل في هذه المرة.. العمل الذي تزوج لأجله، فإذا به يفاجأ بأنه لم يعد هناك مكان خال، ومضى يجرر أذيال الخيبة، ويضمر شعور الاستياء.. وكان أمثاله المستاءون يتزايدون باطراد!.

وفي تلك الأيام كان الزعيم العمالي «براتاب سنغ» يزور تلك المنطقة، وخطب في إخوانه العمال يدعوهم إلى اليقظة والدفاع عن حقوقهم.. وقال لهم أنه من الظلم البين أن يشقى آلاف العمال أو يسخروا أو يستغلوا لينعم أفراد قلائل يكنزون المال أو ينفقونه في ملاذهم وعبثهم.. فليتحدوا وليتعاونوا على ألا يقعوا فريسة في أيدي السماسرة أو الجشعين، وليأبوا الهوان والظلم والسخرة في أي شكل من أشكالها.. ولو اضطرهم الدفاع عن كيانهم وحياتهم إلى محاربةكل خائن، وشنق الأطفال قبل الكبار.

وقوبلت كلمات الزعيم الحماسية بالترحيب الحار، واستقرت معانيها في بعض الرؤوس، ومن بينها رأس هاري نفسه.. لقد التهب بالغيظ، وجرى الدم حاراً في عروقه يطلب الثأر!.

وأمضى الأيام وهو يمرن عضلاته على العمل المقبل.. الخطير، ولكنه لم يكن يستطيع أن يعمل باقتراح الزعيم «برتاب».. فقد كان ذلك يتطلب اتحاد جميع العمال، وهو لا يأمن أن يكون من بينهم طابور خامس.. غير أن الوصية بالدفاع عن الحياة ومقاومة السخرة والإفناء ولو بالشنق كانت لا تزال تفعل فعلها بنفسه، وتحتل جوانب تفكيره.. إن الغاية هي إشعار هؤلاء الظالمين بأن هناك شعوراً بالاستياء يتزايد ضدهم، حتى يكفوا عن التمادي في خطتهم التي تقوم على التسخير والاستغلال الظالم.. واختمرت الفكرة في ذهنه حتى انتهت به إلى قرار.. قرار بأن يلوي رقبة ابن «صاني لال» الطفل، للعظة والعبرة!.

وتأهب للفرصة التي تسنح له..

وبينماكان هاري يتسكع ذات يوم قريباً من المصنع، إذ لمح فرصته التيكان ينشدها.. قدمت زوجة صاني لال – الرجل الاستغلالي الظالم – وأطفاله، لزيارة المصانع، كعادتهم في بعض الأيام، وتخلف عنهم أصغر الأطفال وهو يتمسح بأحد جوانب السور الخارجي للمصنع.. ورآه هاري وهو يرفل في الحرير، ويتحلى بالذهب واللآليء!.

ولاح له أن الطريق خال.. ورنت في أذنيه من جديد كلمات براتاب واضحة قوية: «أعملوا أيديكم في رقابهم.. أولئك الظالمين الذين طردوكم.. وأطفالهم معهم.. لن يكون هذا عدواناً، فإن موت حفنة منهم أعدل من شقاء خمسة آلاف..».

وخطا الرجل بضع خطوات نحو الطفل.. ونظر إليه وهو ساكن ليس في قلبه شيء من الخوف.. نظر الرجل الذي يتحرك أمامه وفي ذهنه نية ارتكاب جريمة.. نية قتل!.. كان كل عضو من أعضائه يفشي قصده.

ولم يلحظ «هاري» والد الطفل وهو يقترب من ذلك المكان متفقداً تعريشة التفاح.. وقد حانت منه التفاتة نحوه فإذا تقاطيع وجهه وحركة يديه تدعو إلى الريبة، وحسب أن الرجل انما ينوي أن يسلب اللاليء والذهب من طفله، فصاح يستنجد بخدمه.

والتفت هاري مذعوراً، فوجد الرجال قد أحاطوا به والرئيس يقف أمامه وهو يتميز من الغيظ، فسقط على الأرض من تأثير المفاجأة.. وقذف الرجال به خارج المنطقة بعد أن هددوه بأنهم سيطلقون عليه الرصاص إذا ما اقترب من المصنع مرة أخرى.

***

وتقف «هاري» فجأة عن الاسترسال في الذكرى، عندما سمع وهو في مخبأه ذاك تحت الديوان آهة حزينة تأتي إليه من الجانب الآخر للديوان حيث الأريكة.. وخيل إليه أنه يعرف هذا الصوت ويألفه، ولما سمع الكمساري ينادي وهو يدخل: «التذاكر من فضلكم» عرف سبب هذه الآهة!.. والتفت بحذر ينظر من أحد الثقوب، فرأى الكمساري وهو يراجع تذاكر خمس من النساء وثلاثة من الرجال يجلسون على الأريكة

الطويلة.. ثم التفت إلى السيدة الشابة الجميلة التي تفترش أرض الديوان وتحمل طفلاً في حضنها. وصاح: «التذكرة؟».

واضطربت المرأة، وحاولت أن تقف ولكن خانتها قدماها.. وضعفها..

– أهذه أنت أيتها الفاجرة؟!.

وأمسكها من شعرها، وأدار وجهها الشاحب نحو الضوء لتيحقق منه، ثم أردف قائلاً:

– أتراك تنوين أن تتصيدي كل إنسان وتبذلي له جسدك؟! سأقذف بك عند أول محطة!.

وتململ هاري في جلسته في ضيق.. ولو وقع مثل هذا الاعتداء بالقول أمامه قبل الآن لأقدم على قتل هذا الرجل جزاء له على وقاحته.. أما اليوم فقد اعتاد الذل والهوان، والسكوت على الضيم.. بل اعتاد أن يوطأ بالنعال الثقيلة!.

ومر الكمساري بالقسم الباقي من الديوان ومضى بعد أن أدى عمله.. مضى من غير أن يلحظ «هاري» في مخبأة البعيد عن العيون.. وعاد «هاري» ينظرمن خلال الفرحة التي أمامه.. ورأى المرأة تسبل رداءها وتنخرط في نواح مرير، وراح طفلها يبكي ويصرخ. وتأثرت إحدى الجالسات – وكانت سيدة ثرية متقدمة في السن – تأثرت بما رأت، ورق

قلبها للمرأة، فالتفتت إليها ودعتها إلى الجلوس على الأريكة إلى جوارها.. وساعدتها على الانتقال من مكانها حتى تحاملت على قدميها، وجلست فوق المقعد وهي تتلفت وجلة هنا وهناك، كالغزال المذعور من ملاحقة الصائد!.

وقالت لها السيدة العجوز:

– إنك تبدين لي يا ابنتي فتاة لا ينقصها الجمال ولا الحسن والفتنة. فكيف اتفقت بك هذه التعاسة الباكرة؟ هل هجرك رفيقك أم خدعك أحد الذئاب؟ إن الكمساري قد استعمل في خطابه لك ألفاظاً قاسية نابية.. أتراه يعرفك؟.

ومر بعض الوقت قبل أن تستطيع السيدة الشابة الكلام، لتأثرها.. وحين تمالكت نفسها، أخذت تروي لها من خلال دموعها قصة حظها السيء..

– عندما ولد هذا الطفل، منذ سنة مضت، تركني زوجي.. لم يكن قادراً على أن يتكسب ما يكفيني ويكفيه، وكل جهوده أخفقت في النهاية، وترك المنزل في أحد الأيام ثم لم يعد!.. وأمضيت شهرين وأنا أعيش على إحسان الجيران، ولكن إلى متى يستطيع المرء أن يعيش هكذا؟.. بحثت عن عمل فلم أجد، وأخيراً هجرت أنا الأخرى البيت وليس في يدي خردلة واحدة!.. وصور لي غبائي أني قد أستطيع إذا رحلت عن «بنارس» أن أجد عملاً، أو على أسوأ الفروض أعيش على

إحسان المئات من الحجاج والسياح الذين يتدفقون على تلك الأماكن كل يوم.. وأرغمتني حالة المسغبة التي كنت فيها على ركوب القطار بغير تذكرة.. واستطعت أن أقطع في السفر تسع ساعات من غير أن يكتشف أحد أمري.

«وحدث في ساعة متأخرة من الليل وكان القطار يتحرك من إحدى المحاط، أن جاءني «الكمساري» وكان رجلاً فظاً أسود اللون ذا عينين جاحظتين وأنف ضخم، وطلب التذكرة، ولما لم يكن لي دراية من قبل بمثل هذا الموقف فقد تحسست قدميه وقلت له ضارعة إني جد فقيرة.. فقال بغير اكتراث: «ستنزلين في المحطة التالية».

«قالها ومضى.. ولكنه رمقني وهو في طريقه بمؤخر عينيه، وخصني بنظرة مريبة، فأدركت لتوي أن المتاعب لا شك في انتظاري، وفكرت في أن أقفز من نافذة القطار لا تخلص مما أنا موشكة أن أقع فيه.. ولكن هذا الطفل ورغبتي في أن أنقذه بأي ثمن قد صرفاني عن هذا التفكير.

«وعندما وقف القطار في المحطة التالية، أسرع الرجل إليَّ، ودعاني من الديوان وطلب إليَّ ان أغادر القطار وأن أنتظر تحت شجرة عند طرف الرصيف، وحذرني من أن أتحرك من مكاني الذي عينه لي، قائلاً إنني إذا تحركت فسيلقي البوليس القبض عليَّ، ولم يكن هناك بد من أن أطيع.

«وبعد أن تحرك القطار وجدت الرجل يأتي إليَّ ويطلب مني أن أتبعه إلى المدينة.

«ولم أكن آمنة على نفسي من صحبة هذا الرجل في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل، ولما رأى ترددي وامتناعي، قال يهددني: «إذا لم تتبعيني فسأسلمك بغير تردد لأيدي البوليس.. وفي هذه الحالة قد يحكم عليك بعشرة أضعاف الحكم المعتاد».

وتبسم الوحش ابتسامة ماكرة تسفر عن غرضه الدنيء.. وكما قلت لك،كان همي منحصرًا في أن أنقذ طفلي!..».

وأمسكت المسكينة عن الكلام، وانهمر الدمع غزيراً على وجنتيها الشاحبتين..!.

وقطعت السيدة العجوز الصمت بكلمات تحمل آيات عطفها وإشفاقها..

– إذن فقد سقطت فريسة لهذا الوحش!..

وضاعفت هذه العبارة من انخراطها في البكاء، ولم تكن تدري أن روايتها قد أثارت عاصفة هوجاء في صدر شخص آخر.. لقد امتلأ صدر «هاري» – الذي كان يستمع إلى روايتها – بالغضب والغيظ، وأخذ جسده يتلوى ويتململ.. ولكنه تمالك نفسه ليصغي إلى المرأة وهي تستأنف كلامها.

قالت السيدة الثرية:

– وبعد..؟

– ماذا بعد؟.. لقد وجدت نفسي في صباح ذلك اليوم المشئوم ملقاة في فناء المحطة ومعي روبية في يدي.. لقد فكرت في أن أقذف بها في وجه الرجل، ولكن الطفل.. كان تفكيري في طفلي هو الذي يحملني دائماً على غير ما أحب، ويدفعني إلى ركوب الأخطار.. كيف كنت أواجه ذلك اليوم وليست معي هذه الروبية؟.. إذا منعت نفسي عن الطعام فلن يجد الطفل ما يرضعه!.

وتوقفت هنيهة لتمسح دموعها، ثم واصلت حديثها:

– ركبت القطار حتى وصلت إلى «بنارس» وهناك وجدت والألم يحز في نفسي إنكل إنسان يتحدث إلى بشيء من العطف إنما كان غرضه دنيئاً.. وأن كل فرد خبيث النية – وما أكثرهم – يفترض أنكل امرأة يصادفها لا تكون إلا ساقطة تبذل جسدها بغير حفاظ.. ويتطلع إلى كل واحدة بعينين شهوانيتين لا تشبعان وهو يمني نفسه بأنها لن تفلت منه ولن تتأبى عليه..!

«لقد تنقلت من باب إلى باب، لا مستجدية، بل طالبة عملاً وكان الحائل دائماً هو وجود الطفل، إنهم يريدون خادمة بغير حمل يشغلها، وكانت النسوة يتوهمن أني قد أتيت بالطفل عن طريق غير شريف، ويقلن لي متهكمات أن بيتاً بعيداً عن العيون هو أليق لي، لقد أسفرن عن خبث

طواياهن، وإني لأعلم أن الحظ وحده هو الذي حال بينهن وبين هذه البيوت المريبة!.

«وبعد لأي استطعت أن أحمل إحدى السيدات على أن تستخدمني عندها.. وظننت أن متاعبي قد انتهت عند هذا الحد.. كنت أظن ذلك إلى أن تسلل إليَّ سوء حظي مرة أخرى، في الشهر الماضي..

«عاد إلى البيت الابن الوحيد للسيدة التي أعمل عندها، عاد من «بورما» ليتزوج، وكان يبدو لي أنه رجل طيب الأخلاق ولذلك لم يتطرق إلى ذهني أي تفكير في أن أخشى على نفسي من اقترابه مني، وفي ذات ليلة دخل الشاب غرفتي، وحاول أن يمسك بي، ولما رحت أقاوم بدا ظلنا من خلال الضوء ممتداً خارج الباب، حيثكانت أمه ترقب حركة الظل وتظن بي الظنون، فما أن طلع الصبح حتى طردتني شر طردة!».

– إنه الطفل، أيتها المسكينة!.. هذا كل ما في الأمر، فاجتهدي أن تنسي كل شيء، فمن الواضح أن ما حدث قد وضع في ظروف خارجة عن إرادتك.

– من أين لي الراحة يا أماه؟.. إني لا أستحق أن أجلس إلى جوارك بعد أن فقدت أعز ما تملكه المرأة.. الشرف! لقد أضعته، ولذلك جرؤ الكمساري على أن يقول لي «يافاجرة» وأحسب أن بائسة مثلي لن تستطيع أن تطمع في شيء من هذا الشرف الذي لا يعادله شيء في الوجود!.

– يا بنيتي هوني على نفسك.. حقاً إن فقد الشرف أمر خطير يحطم القلب، ولكن الذي يظن أنه أضاعه يجب أن يراجع نفسه فيما إذا كان قد فعل ذلك راغباً أو راغماً.. لقد كنت في مأزق لا فكاك منه، على أن طفلك قد سلبك العقل والتفكير، فلم تفرطي في شيء بإرادتك ولا أنت استسلمت وأنت قادرة على المقاومة، بل كنت في المأزق كالمحاصر الذي قطع الناس عليه الطريق وسلبوه ما معه!.. إن ما وقع لك لم يقع إلا بسبب الدفاع عن النفس، دفاعك عن نفسك وعن طفلك.. فأنت – بهذا الاعتبار – لم تفرطي في شرفك ولا ابتذلت نفسك لأحد ولا استطاع أحد حتى هذا الوحش أن يخدش كرامتك أو يمس روحك أو يحول عواطفك أو مشاعرك نحوه، وحسبك هذا لكي ترضي عن نفسك ولا تحتقر بها، وتلتفتي لطفلك الذي ضحيت لأجله بكل ما تملكين، وذقت لأجل رعايته وحمايته كل هذا الهوان!.. هلا خبرتني عما إذا كنت عائدة الآن أملاً في ملاقاة زوجك؟.

فأجابت:

– لقد صرفت حتى الأمس آخر روبية تبقت لدي من نقودي التي كسبتها من خدمتي، وقد خطر ببالي فجأة أن أبحث عن زوجي في المكان الذيكنا فيه معاً، لعلي أجد الرجل الذي وفيت له ولطفله، قبل أن يستبد بي اليأس وأصنع بنفسي شيئًا أخرتني عنه الأحداث حتى الآن..

وقالت المرأة الثرية الطيبة القلب:

– لا تقنطي يا بنيتي من رحمة الله، ولا تستسلمي لليأس.. هيا ابحثي عن زوجك.. هذا الرجل البائس الذي هجرك.. رجلك الذي لا يقدر المسئولية ولا ينهض بالتبعة!.. فإذا لم تجديه فتعالي لأدبر لك ولولدك كل شيء..

قالت هذا، ثم نفحتها ببعض المال، وأعطتها عنوانها.

ووقف القطار، وخرج «هاري» من مخبأه وهو يتطلع إلصاحبة المأساة ليرى أي إمرأة هي.. ولشد ما كانت المفاجأة حين اكتشف إنها.. إنها زوجته، إنه هو الزوج..! الزوج البائس الذي هجرها، ولم يقدر المسئولية ولا نهض بالتبعة.. وشعر كأن كل كلمة من الكلمات التي سمعها مطرقة تدق رأسه وتحطم عظامه.. كان هو الآخر عائداً إلى حيث ترك زوجته ليرى هل هي ما زالت باقية على قيد الحياة، وماذا فعل الزمن والقدر بها.. وها هو ذا يراها أمامه بحالتها وسرها وسريرتها.. وأتيح له في مخبأه أن يستمع إلى الاتهام والدفاع، ولم يضع وقته في المقارنة والموازنة، بل أطلق العنان لعاطفته، ورأى بعد هذا العذاب الطويل زوجته الضالة تعود، وروحها الحائرة الشقية المعذبة تهتدي إليه، وتتخلص من أوضارها وترفرف حوله.

وكان لقاء حاراً لم يشهد الناس له مثيلاً!.

وحين التفت الرجل ليرى هذه المحسنة الكريمة، الثرية التي طمأنه فعلها إلى ذلك أن الخير قد يجد طريقه حتى بين الأغنياء، أدهشه أن يكتشف أنها ليست إلا والدة «صافي لال» نفسه.

سبحان الله!.. إن الخبز الذي حرمت منه الزوجة بسبب ما صنعه الابن، قد عاد إليها عن طريق الأم!.

لم يكن «حامد» يعلم أن زوجته الوفية ستخط في روايته فصلاً رائعاً، أو إنها ستختمه بنفسها أروع ختام